



عمل الطيران الروسي شريكاً في الصراع المسلح إلى جانب النظام السوري، إلا أنه على الرغم من شدة فعالياته في العمليات القتالية، وقدرته العالية على التدمير، وإسقاط عدد أكبر من الضحايا البشرية والمادية، إلا أنه فعلياً لم يستطع أن يغير معادلات الهزيمة والانتصار التي بقيت تتأرجح بين جانبي الصراع المسلح، المحمولين على الدعم الخارجي، سواء لجهة النظام (إيران، روسيا، المليشيات الطائفية)، أو لجهة المعارضات المسلحة بفضلها ذات التبعات الأيديولوجية والتمويلات الخارجية، أو فصائل الجيش الحر التي توارت بشكل إيجاري تحت ضربات ما تسمى فصائل إسلامية متشددة، طرحت ثمارها المسمومة بحملة اغتيالات واسعة لناشطين سلميين، وقفوا ضد ممارساتهم بكل شجاعة، ومنهم أخيراً الشهيدان رائد الفارس وحمود جنيد، وكانت عملت على تحجيم دور المعارضة السياسية الوطنية، لتتولى كيانات المعارضات المرتهنة دور الأبواق السياسية لفصائل سلاح الأمر الواقع.

ولكن سقوط طائرتين روسيتين غير وجه الصراع في سوريا، وأعاد توزيع قوى التحالفات، بعد شبه استقرار نحو أربع سنوات متتالية، بين محور إيران الداعم المباشر للنظام، ومعه مليشيات طائفية، يتقدمها حزب الله و مليشيات "فاطميون" و"زينبيون" وغيرها، مقابل فصائل مسلحة محسوبة على "المعارضة"، مدعومة أميركياً وأوروباً وعربياً، وتدير معظمها تركيا عبر الشمال السوري المفتوح على الحدود السورية بما يقرب من 800 كم، ما هيأ لسقوط الطائرة الروسية بنيران القوات التركية، في نوفمبر/ تشرين الثاني 2015، أن تكون البوصلة الجديدة ونقطة التحول في مسار الأحداث في الشمال، وتحديداً في حلب، حيث مركز الصراع على النفوذ بين النظام والمعارضة المسلحة.

كما كان الحال عند الحادثة الثانية بين روسيا وإسرائيل، في 23 سبتمبر/ أيلول 2018، والتي أُسّست لتفاهمات دولية جديدة،

ووسعـت من نفوـذ موسـكو في المـلف السـوري، وقلـصـت من قـدرـة الطـيرـان الإـسـرـائـيلي على استـبـاحة الأـجـواء السـوريـة، في مقابل استـسلام إـيرـان الصـامت لـمـطـالـب إـسـرـائـيل بالـانـسـحـاب التـدـريـجي من المـنـاطـق الـحـدـودـيـة معـها، وـلـاحـقاً لـتـصـريـحـات إـيرـانـية مـهـادـنة لـمـطـالـب المـشـترـكة الإـسـرـائـيلـية الـأـمـيرـكـية، عـلـى الرـغـم من سـرـيانـ عـقـوبـات الـأـخـيرـة عـلـيـها .

وـمع الإـقـرار بـحـجم تـلـكـ المـتـغـيرـات الـكـبـرـى، تـبـدو خـرـيـطةـ الـحـرـاكـ الـمـيـدـانـيـ فيـ سـورـيـةـ ضـبابـيـةـ معـ تـحرـيـكـ القـوـىـ المـتـصـارـعـةـ عـلـىـ سـورـيـةـ مـوـاقـعـهاـ بـيـنـ فـيـنـةـ وـأـخـرـىـ، عـلـىـ الرـغـمـ منـ الـهـدـوـءـ النـسـبـيـ الـذـيـ أـعـقـبـ الإـعـلـانـ عنـ إـنـهـاءـ الـهـدـنـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ الـرـوـسـيـةـ (ـمـنـطـقـةـ خـفـضـ التـصـعـيدـ)ـ فـيـ دـرـعاـ، عـبـرـ قـصـفـ النـظـامـ وـخـرـقـهـ لـهـاـ، وـنـجـاحـ مـوـسـكـوـ بـعـدـ صـفـقـةـ تـسـوـيـةـ جـدـيـدةـ مـعـ الـمـسـلـحـيـنـ الـمـعـارـضـيـنـ، تـمـ بـمـوجـبـهاـ تـسـلـيمـ سـلـاحـ الـفـصـائـلـ، وـإـعادـةـ تـوزـعـ الـأـدـوـارـ عـلـىـ الـمـسـلـحـيـنـ الـمـعـارـضـيـنـ لـلـنـظـامـ، بـيـنـ دـاعـمـيـنـ الـجـنـاحـ الـعـسـكـرـيـ الـرـوـسـيـ وـمـؤـيـدـيـنـ لـلـجـيـشـ السـوـرـيـ تـحـتـ الـوـصـاـيـةـ إـيرـانـيـةـ، وـأـخـيـراًـ فـتـحـ مـعـبـرـ نـصـيبـ الـحـدـودـيـ معـ الـأـرـدـنـ الـذـيـ بـدـاـ كـانـ خـاتـمـةـ لـمـاـ سـمـيـتـ مـرـحـلـةـ الـمـنـاطـقـ الـمـحـرـرـةـ فـيـ جـنـوبـ سـورـيـةـ عـمـومـاًـ .

وـإـذـاـ كـانـ لـاـ بـدـ مـنـ القـوـلـ إـنـ تـرـكـيـاـ هيـ مـرـكـزـ الـتـقـلـ شـمـالـاًـ، فـإـنـهـ مـنـذـ دـخـولـ الـصـرـاعـ إـلـىـ مـرـحـلـةـ تـشـكـيلـ الـتـحـالـفـاتـ الـدـولـيـةـ فـيـ مـحـورـيـنـ أـسـاسـيـنـ:ـ الرـوـسـيـ،ـ وـمـقـابـلـهـ عـلـىـ التـضـادـ الـمـحـورـ الـأـمـيرـكـيـ،ـ بـدـتـ تـرـكـيـاـ فـيـ عـيـنـ الـعـاصـفـةـ أـكـثـرـ مـنـ غـيرـهـاـ مـنـ الـدـوـلـ الـفـاعـلـةـ فـيـ الـمـلـفـ السـوـرـيـ عـسـكـرـيـاًـ وـسـيـاسـيـاًـ،ـ بـسـبـبـ تـذـبـبـ الـمـوـقـفـ الـأـمـيرـكـيـ مـنـهـاـ تـارـيـخـةـ،ـ وـتـقـارـبـ مـصـالـحـهـاـ مـعـ الـمـحـورـ رـوـسـيـاـ تـارـيـخـةـ أـخـرـىـ،ـ وـانـقـاسـمـهـاـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ فـيـ تـوزـعـ أـولـوـيـاتـهـاـ بـيـنـ الـأـمـنـيـنـ،ـ الـقـومـيـ وـالـاـقـتـصـادـيـ،ـ مـاـ جـعـلـهـاـ مـرـنـةـ فـيـ التـعـاطـيـ مـعـ مـوـسـكـوـ،ـ وـحـذـرـةـ مـعـ وـاـشـنـطـنـ،ـ وـمـتـأـهـبـهـ ضـدـ مـعـارـضـيـهـ فـيـ الـدـاخـلـ بـعـدـ مـحاـوـلـةـ انـقلـابـ 15ـ يـولـيوـ/ـ تمـوزـ 2016ـ،ـ وـمـتـقـلـبـةـ فـيـ عـلـاقـاتـهـاـ مـعـ أـورـوـبـاـ،ـ وـهـوـ مـاـ يـجـعـلـ قـرـاءـ الـأـحـدـاثـ الـلـاحـقـةـ تـتـمـيـزـ بـمـنـعـطـفـيـنـ أـسـاسـيـنـ:ـ

أـولـهـماـ،ـ مـاـ بـعـدـ إـسـقـاطـ الطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ فـيـ الـلـاذـقـيـةـ (ـ18ـ سـبـتمـبرـ/ـ أـيـلـولـ)ـ إـثـرـ الغـارـاتـ الـإـسـرـائـيلـيـةـ عـلـىـ مـوـقـعـ لـلـجـيـشـ السـوـرـيـ (ـبـعـدـ يـوـمـ مـنـ اـجـتـمـاعـ ثـنـائـيـ روـسـيـ تـرـكـيـ أـبـعـدـتـ فـيـ إـيرـانـ)ـ،ـ اـدـعـتـ إـسـرـائـيلـ أـنـهـ مـخـزـنـ لـأـجـهـزـةـ إـيرـانـيـةـ مـعـدـةـ لـنـقـلـهـاـ إـلـىـ لـبـنـانـ،ـ تـسـهـمـ فـيـ تـطـوـيـرـ مـسـتـوـيـ الدـقـةـ لـدـىـ حـزـبـ اللهـ وـفـيـلـقـ الـقـدـسـ،ـ مـاـ تـسـبـبـ فـيـ إـطـلـاقـ الدـفـاعـاتـ السـوـرـيـةـ صـوـارـيـخـهـاـ "ـخـطاًـ"ـ،ـ وـالـتـيـ أـسـقـطـتـ الطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ،ـ مـاـ دـفـعـ مـوـسـكـوـ إـلـىـ تـحـمـيلـ إـسـرـائـيلـ مـسـؤـلـيـةـ الـحـادـثـةـ وـمـقـتـلـ 15ـ جـنـديـاـ روـسـيـاـ،ـ حـفـاظـاـ عـلـىـ شـكـلـ عـلـاقـاتـهـاـ مـعـ النـظـامـ السـوـرـيـ أـمـامـ الـشـعـبـ روـسـيـ،ـ وـحـتـىـ لـاـ يـسـتـعـجـلـهـاـ بـالـاـنـتـقـامـ لـقـتـلـاهـ مـنـ جـهـةـ،ـ وـلـأـنـ الـأـولـوـيـةـ لـدـيـهاـ لـعـقـدـ صـفـقـةـ مـعـ إـسـرـائـيلـ تـمـنـحـهـاـ مـهـلـةـ "ـإـسـتـرـاحـةـ مـحـارـبـ"ـ لـتـرـتـيـبـ أـورـاقـهـاـ مـعـ إـيرـانـ،ـ وـمـحـاـصـرـتـهـاـ لـإـخـرـاجـهـاـ طـوـاعـيـةـ مـنـ سـورـيـةـ،ـ بـمـاـ بـيـعـدـ شـبـعـ فـكـ الـارـتـيـاطـ مـعـهـاـ قـسـرـيـاـ .

ثـانـيـهـماـ،ـ مـاـ بـعـدـ اـنـتـفـاقـ (ـبـوـتـيـنــ أـرـدـوـغـانـ)ـ فـيـ سـوـتـشـيـ فـيـ 17ـ سـبـتمـبرـ/ـ أـيـلـولـ 2018ـ،ـ الـخـاصـ بـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ مـنـطـقـةـ إـدـلـبـ ضـمـنـ اـنـتـفـاقـ خـفـضـ التـصـعـيدـ،ـ وـإـحـدـاثـ مـنـزـوـعـةـ السـلـاحـ،ـ فـيـ مـقـابـلـ فـتـحـ الـطـرـيقـيـنـ السـرـيـعـيـنـ الـلـذـيـنـ يـرـبـطـانـ جـهـاتـ الـشـرـقـ بـالـغـرـبـ،ـ وـالـشـمـالـ بـالـجـنـوبـ بـعـدـ إـدـلـبـ،ـ وـكـذـلـكـ يـرـبـطـانـ حـلـبـ بـالـسـاحـلـ السـوـرـيـ قـبـلـ نـهـاـيـةـ الـعـامـ الـحـالـيـ،ـ وـتـسـلـيمـ تـرـكـيـاـ مـهـمـةـ اـنـتـزـاعـ الـمـنـاطـقـ مـنـ تـحـ سـيـطـرـةـ الـقـوـىـ الـمـتـنـطـرـفـةـ الـتـيـ تـتـزـعـمـهـاـ جـبـهـةـ النـصـرـةـ فـيـ إـدـلـبـ .

وـعـلـىـ ذـلـكـ،ـ حـسـمـتـ مـعـرـكـةـ حـلـبـ الـصـرـاعـ الـعـسـكـرـيـ شـمـالـاًـ لـمـصـلـحـةـ الـتـسـوـيـاتـ،ـ عـبـرـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ الـذـيـ تـأـسـسـ بـعـدـ الـمـصـالـحـةـ الـتـرـكـيـةـ الـرـوـسـيـةـ،ـ عـلـىـ خـلـفـيـةـ إـسـقـاطـ الدـفـاعـاتـ الـجـوـيـةـ الـتـرـكـيـةـ الـطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ 2015ـ،ـ وـبـدـأـتـ أـولـىـ جـوـلـاتـ بـعـدـ سـقـوـطـ حـلـبـ فـيـ يـدـ الـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ بـعـدـ مـعـرـكـةـ شـبـهـ أـحـارـيـةـ،ـ أـخـذـتـ فـيـهـاـ تـرـكـيـاـ دـورـ الـمـتـفـرـجـ خـلـالـ الـمـعـرـكـةـ،ـ وـالـوـسـيـطـ لـاحـقاـ لـتـحـقـيقـ تـسـوـيـاتـ مـيـدـانـيـةـ،ـ وـلـعـبـ دـورـ فـاعـلـ فـيـ تـغـيـيرـ مـوـقـعـ الـفـصـائـلـ السـوـرـيـةـ (ـالـمـعـارـضـةـ الـمـسـلـحـةـ)،ـ مـاـ مـكـنـ مـوـسـكـوـ مـنـ التـلـاعـبـ فـيـ الـمـلـفـ السـيـاسـيـ،ـ عـبـرـ جـوـلـاتـ أـسـتـانـةـ الـتـيـ تـصـدـرـتـ الـمـشـهـدـ بـرـعـاءـيـةـ ثـلـاثـيـةـ روـسـيـةــ تـرـكـيـةــ إـيرـانـيـةـ،ـ وـجـاءـتـ بـدـيـالـاـ لـجـوـلـاتـ جـنـيفـ الـأـمـمـيـةـ الـتـيـ بـقـيـتـ تـرـاـوـحـ فـيـ مـكـانـهـاـ،ـ مـنـ دـونـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ إـنـجـازـ أـيـ مـاـ يـجـعـلـهـاـ مـنـحـهـاـ لـهـاـ الـقـرـارـاتـ

وذلك يعني أنقرة كانت بيضة القبان التي استثمرتها موسكو، عسكرياً لإنهاء الفصائل المسلحة، وسياسياً لابتداع مسارات تفاوضية تعطيلية لمسار جنيف، وفي الوقت نفسه الذي لم تستطع واشنطن الحفاظ على تركيا حليفاً قوياً لها شمالاً، إلا أنها، في الوقت نفسه أيضاً، لم تتمكن من القطيعة معها، أو الابتعاد عنها كلياً، ما جعل تركيا الثالث المكمل للمعادلتين الروسية مع إيران والأميركية مع أوروبا، أي أنها لم تحسم خياراتها وموقعها، بسبب أنها تريد دوراً أكبر مما أرادته لها موسكو في الملفين، السياسي والاقتصادي، كما أنها ترغب بعلاقاتٍ أوثق مما هو عليه واقع الحال مع واشنطن، وخصوصاً ما يتعلق بملفيها، الأمني المفتوح على ملف الكرد شمالاً، والاقتصادي الذي تنوء به حكومة أردوغان في ظل الخلافات البينية الأميركية - التركية، كما لا يمكن لإدارة ترامب تجاهل مصلحتها في استعادة التقارب مع تركيا، لضمان وجود آمن لمصالحها في الشمال السوري.

ومن خلال ذلك، يمكن فهم المتغيرات الميدانية الحالية شمالاً، والتي تسمح لتركيا بإعادة توازن الرعب مع القوات الكردية (الحليفة لأميركا)، عبر تهديداتٍ بفتح معركة وجودية معها شرق الفرات، في وقتٍ تظهر فيه الدوريات الأميركية الكردية المشتركة، وتعود أخبار وصول القوات العربية المشتركة (السعودية - الإماراتية) إلى مناطق التماس الكردية التركية للتداول من جديد، تأكيداً على استمرار التحالف بينهم، ولكن بما لا يتعارض مع سياسة الصمت على التهديدات التركية التي تعني المناطق المسيطر عليها "كردياً"، وغير الآهلة عملياً بالوجود الأميركي في شرق تل أبيض وغريها.

المصادر:

العربي الجديد